ابن قتيبة

كتاب المعارف

قال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكاتب: هذا كتاب جمعت فيه من المعارف، ما يحق على من أنعم عليه بشرف المنزلة وأخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة وفضل بالعلم والبيان على العامة، أن يأخذ نفسه بتعليمه ويروضها على تحفظه، إذ كان لا يستغنى عنه في مجالس الملوك أنى جالسهم، ومحافل الأشراف أنى عاشرهم، وحلق أهل العلم أنى ذاكرهم، فإنه قل مجلس عقد على خير أو أسس لرشد أو سلك فيه سبيل إلا وقد يجري فيه من أسباب المعارف إما في ذكر نبي أو ذكر ملك أو عالم أو نسب أو سلف أو زمان أو يوم من أيام العرب، فيحتاج من حضر إلى أن يعرف عين القصد ومحل القبيلة وزمان الملك وحال الرجل المذكور وسبب المثل المشهور، فإني رأيت من الأشراف من يجهل نسبه ومن ذوي الأحساب من لا يعرف سلفه ومن قريش من لا يعرف من أين تمسه القربى برسول الله ﷺ أو الرحم بالأعلام من صحابته، ورأيت من أبناء ملوك العجم من لا يعرف حال أبيه وزمانه، ورأيت من ينتمي إلى الفصيلة وهو لا يدري من أي العمايير هي وإلى البطن، ولا يدري من أي القبائل هو، ورأيت من رغب بنفسه عن نسب دق فانتهى إلى رجل لم يعقب كرجل رأيته ينتسب إلى أبي ذر ولا عقب لأبي ذر، وآخر ينتمي إلى حسان بن ثابت وقد انقرض عقب حسان، وكآخر دخل على المأمون فكلمه

بكلام أعجبه، فسأله عن نسبه فقال من طيء من ولد عدي بن حاتم، فقال له المأمون: لصلبه؟ قال: نعم، فقال المأمون: هيهات أضللت أن أبا طريف لم يعقب، فكان سقوطه بجهله حال الرجل الذي اختاره لدعوته أقبح من سقوطه بالنسب الذي رغب فيه، وقد يكون الرجل متبوعاً في الأدب قد سمق فيه وأخذ بالحظ إلاوفى منه إلا أنه أغفل شيئاً من الجليل كان أولى به من حفظ بعض ما حفظ فيلحقه فيه النقيصة ويرجع عليه من الهجنة كطالب غوامض الفقه وقد أغفل أبواب الصلاة والفرايض وطالب طرق الحديث وقد أغفل متونها ومعانيها، وطالب علل النحو وتصاريفه وهو يلحن في رقعة إن كتبها وبيت شعر ينشده.

وكتابي هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف أولها مبتدأ الخلق . . . [ويذكر محتويات الكتاب].

وكان غرضي في جميع ما اقتصصت الإيجاز والتخفيف والقصد المشهور من الأنباء دون المغمور، ولما يجري له سبب على ألسنة الناس دون ما لا يجري له سبب، ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلاً عن حفظه ولاختلط الخفي بالجلي فمجته الآذان وملته النفوس والنفس إلى ما يصلح منه شيئاً أكثر تطلعاً وأشد استشرافاً وهو بها ألصق ولها ألزم. وقد شرطت عليك تعلم ما في هذا الكتاب و تعرفه ولو أطلته وذكرت ما بك عنه الغناء أكثر دهرك أتعبتك وكددتك وأحوجتك إلى أن تتلفظ منها شيئاً للمعرفة والحفظ وتنبذ منه شيئاً، فكفيتك ذلك واحتطت له فيه بأبلغ الاحتياط وعايرت على نظري بنظر الحفاظ من إخواننا والنساب، وأرجو أن أكون قد بلغت لك فيه

همة النفس وثلج الفؤاد ولنفسي ما أملت في تبصيرك وإرشادك من توفيق الله وحسن الثواب.

(ابن قتيبة - المعارف ص٣-٦)

مبتدأ الخلق

قال أبو محمد [عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكاتب]: قرأت في التوراة في أول سفر من أسفارها أن أول ما خلق الله تعالى من خليقته السماء والأرض، وكانت الأرض خربة خاوية، وكانت الظلمة على الغمرة، وكانت ريح الله تبارك وتعالى ترف على وجه الماء، فقال الله -عز وجل- ليكن النور، فكان نوراً فرآه الله حسناً فميزه من الظلمة وسماه نهاراً، وسمى الظلمة ليلاً، فكان مساء وكان إصباح يوم الأحد. وقال الله تعالى: ليكن سقف وسط الماء فليحل بين الماء والماء فكان سقفه وميز بين الماء الذي هو أسفل وبين الماء الذي هو أعلا فسمى الله السقف سماء وكان مساء وكان إصباح يوم الاثنين. قال أبو محمد [حدثني أبو الخطاب قال: حدثنا مالك بن سعد قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح] في قول الله عز وجل «والبحر المسجور» قال: كان علي (رضي الله عنه) يقول: هو بحر تحت العرش. وهذا شبيه بما ذكر في التوراة من أن السماء بين مائين. وعاد الخبر إلى التوراة وقال الله (عز وجل): ليجتمع الماء كله الذي تحت السماء إلى مكان واحد فلير اليبس، وكان كذلك، فدعا الله (عز وجل) اليبس أرضاً وسمى ما اجتمع من المياه البحور، ثم قال الله -تبارك وتعالى-، لتخرج الأرض زهرة العشب والشجر ذا الحمل كلا لسوسه فأخرجت الأرض ذلك فرآه الله حسناً وكان مساء وكان إصباح يوم الثلاثاء. وقال الله: لتكن نورين في سقف السماء ليميزا بين الليل والنهار وليكونا آيات

للأيام والسنين فكانا نورين الأكبر لسلطان النهار والأصغر والنجوم لسلطان الليل فرآه الله حسناً وكان مساء وكان إصباح يوم الأربعاء. وقال الله: ليحرك الماء كل نفس حية وليطير الطير على وجه الأرض في جو السقف، وخلق الله تنانين عظاماً وحرك الماء كل نفس حية لجنسها وكل طاير لجنسه فرأى الله ذلك حسناً فتركهن وقال أثمروا وأكثروا وكان مساء وكان إصباح يوم الخميس. ثم قال الله: نخلق بشراً بصورتنا فخلق آدم من أدمة الأرض ونفخ في وجهه نسمة الحياة، وقال: إن آدم لا يصلح أن يكون وحده ولكن أصنع له عيناً مثله فألقى عليه السبات فأخذ إحدى أضلاعه فلامها وسمى الضلع الذي أخذه امرأة لأنها من المرء أخذت فقربها إلى آدم فقال عظم من عظامي ولحم من لحمي، ومن أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتبع امرأته ويكونان كلاهما جسداً واحداً، وتركهما الله و قال: أثمروا وأكثروا وأملوا الأرض وتسلطوا على أبواب البحور وطير السماء والأنعام والدواب وعشب الأرض وشجرها وثمرها، ورأى كل ما خلق فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان إصباح يوم السادس. فكمل كل أعمال الله التي عمل ثم استراح في اليوم السابع من خليقته فبركه وطهره.

ونصب ربنا الفردوس في عدن وبها نهر يسقي الفردوس فانقسم على أربعة رؤوس، فجيحون وهو محيط بأرض خويلاء كلها وثم يكون أجود الذهب وحجارة البلور والفيروزج، واسم النهر الثاني: سيحون وهو محيط بأرض كوش والحبشة، واسم النهر الثالث: دجلة وهو الذي يذهب قبل آثور، والنهر الرابع: الفرات. ونصب شجرة الحياة وسط الفردوس وشجرة علم الخير والشر وقال لآدم: كل ما شئت من شجرة الفردوس ولا تأكل من شجرة علم الخير

والشر فإنك يوم تأكل منها تموت، وقال أبو محمد: يريد أنك تتحول إلى حال من يموت. وكانت الحية أعرم دواب البر فقالت للمرأة: إنكما لا تموتان إن أكلتما منها ولكن أعينكما تتفتح وتكونان كالآلهة تعلمان الخير والشر فأخذت المرأة فأكلت وأطعمت بعلها فانفتحت أبصارهما وعلما أنهما عريانان فوصلا من ورق التين واصطنعاه إزراً، ثم سمعا صوت الله في الجنة حين بورك النهار فاختبأ آدم وامرأته في شجر الجنة فدعاهما فقال آدم: سمعت صوتك في الفردوس ورأيتني عرياناً فاختبيت منك، فقال: ومن أدراك أنك عريان ها لقد أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فقال: إن المرأة أطعمتني، وقالت المرأة: إن الحية أطعمتني، فقال الله تعالى للحية: من أجل فعلك هذا فأنت ملعونة وعلى بطنك تمشين وتأكلين التراب وسأغري بينك وبين المرأة وولدها فيكون يطأ رأسك وتكونين أنت التي تلدغينه بعقبه، وقال للمرأة: وأنت فأكثر أوجاعك وأحبالك وتلدين الأولاد بالألم وتردين إلى بعلك فيكون مسلطاً عليك، وقال لآدم: ملعونة الأرض من أجلك وتنبت الحاج والشوك وتأكل منها بالشقا ورشح وجهك حتى تعود إلى التراب من أجل أنك تراب. وسمى الله امرأته حواء لأنها أم كل حي وألبسها وإياه سرابيل من جلود وقال: إن آدم قد علم الخير والشر فلعله يقدم يده ويأخذ من شجرة الحياة فيأكل منها فيعيش الدهر فأخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ.

فهذا ما في التوراة، وأما وهب بن منبه فذكر أن الجن كانت سكان الأرض قبل آدم فكفرت طايفة منهم فسفكوا الدماء فأمر الله جنداً من الملائكة من أهل سماء الدنيا منهم إبليس وكان رئيسهم فهبطوا إلى الأرض فأجلوا عنها الجان، واستشهد على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾، أي من قبل أن نخلق آدم، فألحقوهم بأطراف التخوم وجزائر البحر،

وسكن إبليس والجند الذي معه عمران الأرض وأريافها وكان اسم إبليس عزازيل. ثم ذكر خلق الله آدم، وقال: ثم كساه لباساً من ظفر يزداد جدة في كل يوم وحسنا، فلما أكلا من الشجرة انكشط عنهما اللباس وكان له مثل شعاع الشمس حتى صار في أطراف أصابعهما من أيديهما وأرجلهما، قال وخلقه يوم الجمعة ومكث في الجنة ستة أيام وكان أول شيء أكله في الجنة العنب، وكانت الشجرة التي نهيا عنها شجرة البُر، وكان الله أخدم آدم الحية في الجنة وكانت أحسن خلق الله لها قوايم كقوايم البعير فعرض إبليس نفسه علي دواب الأرض كلها أنها تدخله الجنة فكلها أبى ذلك عليه إلا الحية فإنها حملته بين نابين من أنيابها ثم أدخلته الجنة. قال: ولما تاب الله على آدم أمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض وقبض عنه المفاوز فلم يضع قدمه إلى شيء من الأرض إلا صار عمراناً حتى انتهى إلى مكة، وكان مهبطهُ حين أهبط من جنة عدن في شرقي أرض الهند، وأهبط الله حواء بجدة والحية بالبرية وإبليس على ساحل بحر الأبله. وقال ابن إسحق: يذكر أهل العلم أن مهبط آدم وحواء على جبل يقال له واسم من أرض الهند.

(ابن قتيبة، المعارف ص ٦-٩)

الفتــوح

[خراسان] أما خراسان فافتتحت في خلافة عثمان بن عفان صلحاً على يدي عبدالله بن عامر بن كريز، وكان منتهى ما افتتح منها في خلافة عثمان مرو ومرو الروذ، وأما ما وراءهما فإنه افتتح بعد عثمان على يدي سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية صلحاً سمرقند وكش ونسف وبخارا وبعد ذلك على يدي المهلب ابن أبي صفرة وقتيبة بن مسلم.

[طبرستان وجرجان والري] فأما الري فإن أبا موسى الأشعري افتتحها في خلافة عثمان بن عفإن صلحاً، وأما طبرستان ففتحها سعيد بن العاص في ولاية عثمان صلحاً ثم فتحها عمر بن العلاء والطالقان ودنباوند سنة سبع وخمسين ومماية، وأما جرجان فافتتحها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبدالملك سنة ثمان وتسعين .

[كرمان وسجستان] وأما كرمان وسجستان ففتحهما عبدالله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان صلحاً .

[الجبل] وأما الجبل فإنه افتتح كله عنوة في وقعة جلولا ونهاوند على يدي سعد والنعمان بن مقرن .

[الأهواز وفارس وإصبهان] وأما الأهواز وفارس وإصبهان فافتتحت عنوة لعمر على يدي أبي موسى وعثمان بن أبي العاص وعتبة بن غزوان وكان فتح إصبهان على يدي أبي موسى خاصة .

[السواد] وأما السواد فافتتح كله عنوة علي يدي سعد في خلافة عمر .

[الجزيرة] وأما الجزيرة فإنها فتحت صلحاً على يدي عياض بن غنم .

[الشام] وأما الشام فإن أجنادين منها افتتح صلحاً في خلافة أبي بكر، وافتتح عمر بن الخطاب بيت المقدس، ومدن الشام كلها، افتتحت صلحاً دون أراضيها لعمر، وأما أرضوها فعنوة على يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة وخالد بن الوليد .

[مصر] وأما مصر ففتحت صلحاً على يدي عمرو بن العاص .

[المغرب] من المغرب ما افتتحه عبدالله بن سعد بن أبي سرح لعثمان وهو افريقية افتتحها عنوة، والثغور وقيسارية افتتحها معاوية عنوة لعمر.

[الأندلس] افتتحها طارق بن زياد مولى موسى بن نصير اللخمي سنة اثنتين وتسعين.

[هجر واليمامة والبحرين] أما هجر والبحرين فإنهم أدوا الجزية إلى رسول الله ﷺ وكذلك دومة الجندل وأذرح، وأما اليمامة فافتتحها أبو بكر (رحمه الله).

[الهند] وأما أرض الهند فافتتحها القاسم بن محمد الثقفي في سنة ثلاث وتسعين. (ابن قتيبة - المعارف ص ٢٨١-٢٨٢)

[التابعون ومن بعدهم] الحسن البصري

اسم أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، قالوا كانت خيرة أمه ربما غابت فيبكي فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فيدر ثديها فيشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك. ونشأ الحسن بوادي القرى، وحدثني عبدالرحمن والرياشي عن الأصمعي عن حماد بن زيد وحماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان قال: ولد الحسن على العبودية. وحدثني عبدالرحمن عن الأصمعي عن جده عن قتادة أن أم الحسن كانت مولاة لأم سلمة. وقال أبو اليقظان: أبو الحسن البصري وأبو محمد بن سيرين من سبي ميسان، وكان المغيرة افتتحها زمن عمر بن الخطاب لما ولاه البصرة، وقال آخرون: يسار من أهل نهر المراة. وكان الحسن من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث. وحدثني عبدالرحمن عن الأصمعي عن

أبيه قال: ما رأيت أعرض زنداً من الحسن كان عرضه شبراً. وكان تكلم في شيء من القدر ثم رجع عنه. وكان عطاء بن يسار قاصاً ويرى القدر، وكان لسانه يلحن فكان يأتي الحسن هو ومعبد الجهني فيسألونه ويقولان: يا با سعيد إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال ويفعلون ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله فقال: كذب أعداء الله، فيتعلق عليه بهذا وأشباهه، وكان يشبه برؤبة بن العجاج في فصاحة لهجته وعربيته. وكان مولده لسنتين بقيتا من خلافة عمر ومات سنة عشر ومائة، وفيها مات محمد بن سيرين بعده بمائة يوم ولم يشهد ابن سيرين جنازته لشيء كان بينهما. وكان الحسن كاتب الربيع بن زياد الحارثي بخراسان، وقيل ليونس بن عبيد أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله، ثم وصفه فقال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

(ابن قتيبة - المعارف ص ٢٢٥)

الأوايل

حدثني زيد بن أخزم قال: حدثنا عبد الصمد قال حدثنا شعبة قال: حدثنا المغيرة قال: سمعت سماك بن سلمة يقول: أول من سُلم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة. حدثنا زيد بن أخزم قال: حدثنا كثير بن همام عن فرات عن ميمون بن مهران قال: أول من مشت معه الرجال وهو راكب الأشعث بن قيس.

قال أبو اليقظان وغيره: أول من سن الدية مائة من الإبل أبو سيارة العدواني الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة، ويقال: أن أول من سن ذلك عبد المطلب فأخذ به قريش والعرب وأقره رسول الله ﷺ في الإسلام.

قالوا: والوليد بن المغيرة أول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية فخلع الناس نعالهم في الإسلام، وأول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها رسول الله ﷺ في الإسلام، وأول من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية فقطع رسول الله ﷺ في الإسلام. وكانوا يقولون في الجاهلية لا وثوبي الوليد الخلق منها والجديد، وقال وهب بن منبه: الحكم بالقسامة أوصاه الله إلى موسى في كل قتيل وجد بين قريتين أو محلتين فلم تزل بنو إسرائيل تحكم بها وقضى بها رسول الله ﷺ.

قال وهب: أول من خط بالقلم إدريس وهو أول من خاط الثياب ولبسها وكان من قبله يلبسون الجلود.

وحدثني سهل بن محمد عن الأصمعي أو غيره قال: أول من كتب بالعربية مرامر بن مُرة من أهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت في الناس. قال: وقال الأصمعي: ذكروا أن قريشاً سئلوا من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من أهل الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من الأنبار. وقال غيره: كان بشر بن عبدالملك العبادي علم أبا سفيان بن أمية وأبا قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتاب فعلّما أهل مكة.

قالوا: وأول من حكم في الخنثى باتباع المبال عامر بن الظرب العدواني فجرى في الإسلام، وهو الذي قال لابنته: إذا انكرت من فهمي شيئاً عند الحكم فاقرعي لي المجن بالعصا، فقال المتلمس:

لذي الحكم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

وقد يقال: إن ذا الحكم صيفي أبو أكثم، وقيل: عمرو بن حمة الدوسي وكان من المعمرين.

قالوا: وأول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب بن هاشم، وكان رجل من حمير خضبه بذلك باليمن وزوده بالوسمة. وأول من عمل المحامل وحمل فيها الحجاج بن يوسف.

هارون الرشيد

هو هارون بن المهدي، بويع له في اليوم الذي توفي فيه موسى ببغداد وولد له ابنه عبدالله المأمون في هذا اليوم، وكان يكنى أبا جعفر وأمه الخيزران، وكان ينزل الخلد من بغداد في الجانب الغربي. وكان يحيى بن خالد وزيره وابناه الفضل وجعفر ينزلان في رحبة الخلد، ثم ابتنى جعفر قصره بالدور ولم ينزل له حتى قتل.

وحج هارون بالناس ستة حجج آخرها في سنة ست وثمانين ومائة وحج معه في هذه السنة ابناه ووليا عهده محمد الأمين وعبدالله المأمون، وكتب لكل واحد منهما كتاباً على صاحبه وعلقه في الكعبة، فلما انصرف نزل الأنبار. ثم حج بالناس سنة ثمان وثمانين ومائة. وقتل جعفر بن يحيى بالعمر وهو موضع بقرب الأنبار سنة سبع وثمانين ومائة آخر يوم من المحرم وبعث بجثته إلى بغداد، ولم يزل يحيى وابنه الفضل محبوسين حتى ماتا بالرقة.

وخرج في خلافته الوليد بن طريف الشاري وهزم غير عسكر فوجه إليه يزيد ابن مزيد فظفر به وقتله، وخرج بعده خراشه الشاري أيضاً. وقتل هارون أنس ابن أبي شيخ وهو ابن أخي خالد الحذاء المحدث وكان أنس صديقاً لجعفر بن يحيى وصلبه بالرقة وكان يرمى بالزندقة، وكذا البرامكة كانوا يرمون بالزندقة إلا أقلهم، وفيهم قال الأصمعي:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وغزا هارون سنة تسعين ومائة الروم، وافتتح هرقلة فظفر ببنت بطريقها فاستخلصها لنفسه. فلما انصرف ظهر رافع بن ليث بن نصر بن سيار بطخارستان مبايناً لعلي بن عيسى فوجه هرثمة لمحاربته وإشخاص علي بن عيسى إليه فلما قدم عليه أمر بحبسه واستصفاء أمواله وأموال ولده. وتوجه هارون سنة اثنتين وتسعين ومائة ومعه المأمون نحو خراسان حتى قدم طوس فمرض بها ومات، فقبره هناك، وكانت وفاته ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وقد بلغ من السن سبعاً وأربعين سنة وشهرين وسبعة عشر يوماً. ومن ولده محمد أمه زبيدة بنت جعفر والمأمون عبدالله أمه مراجل والقاسم المؤتمن وصالح وأبو عيسى وأبو إسحاق المعتصم وأبو يعقوب وحمدونة وغيرهم. (ابن قتيبة - المعارف ص ١٩٣-١٩٤)